وصف الربيع في مخيلة أبي تمام
(دراسة تحليلية)

جواد عودة سبهان

ملخص البحث

هذه المقالة النقدية بصدد استعراض قصيدة – وصف الربيع – لأبي تمام . فإننا وجـدناها احتـوت علـى مكونات النص الابداعي ، من قيم فكرية ، وقيم جمالية ، وعاطفة متنوعة وغنية بالمشاعر ، واسلوب رصين محكم ، وسمو المعاني ، فاستحقت منا العناية ، بغية الكشف عن سرّ بلاغتها وجمالها وإبداع الشاعر فيهـا ، وهي ما انفرد لها هذا البحث.

المفردات الدلالية :

قصيدة وصف الربيع – القراءة النقدية – العاطفة – الصور – دلالة الالوان – الاسلوب

The Summery of the Research

This critical article in the process of reviewing the spring description of the poem for Abo Tamam .

We found it contained the components of the creative text of intellectual values and aesthetic values and passion and its diversity and rich in feeling and discreet style tight and transcendent.

Its beauty and the creativity of the poet can be obviously appear in the poem.

القصيدة في وصف الربيع :

ب١ رَقت حواشي الـدّهر فهـى تمرمـرُ وغـدا الثـرى فـي حُليـه يتكسـرُ

ب٢ نزلـتْ مُقدمـة المصـيف حميـدةً ويـدُ الشـتاءِ جديـدةٌ لا تُكفـرُ

ب٣ لولا الـذي غـرسَ الشـتاءُ بكفـهِ لاقـى المصـيفُ هشـائماً لا تُثمـرُ

ب٤ كـم ليلـةٍ آسـى الـبلاد بنفسـهِ فيهـا ويـومٍ وبلـهُ مُثغنجـرُ

ب٥ مطرٌ يـذوبُ الصّـحو منـه وبعـده صـحوٌ يكـادُ مـن الغضـارة يُمطـرُ

ب٦ غيثـان فـالأنواء غيـثٌ ظـاهرٌ لك وجههُ ، والصـحوُ غيـثٌ مُضـمرُ

ب٧ وندى إذا أدهنـتْ بـه لمـمُ الثـرى خلـتَ السـحابَ أتـاهُ وهـو مُعـذرُ

ب٨ أربيعنـا فـي تسـع عشـرة حجـةً حقـاً لَهنّـك للربيـع الأزهـرُ

ب٩ مـا كانـت الأيـام تُسـلب بهجـةً لـو أن حَسـن الـروض كـان يُعمـر

ب١٠ أولا ترى الأشـياءَ انْ هـي غُيـرت سَـمُجت وحُسـن الأرض حـين تغيـرُ

ب١١ يـا صـاحبي تقصـيا نظريكُمـا تريـا وجـوه الأرض كيـف تصـورُ

ب١٢ تريـا نهـاراً مُشمشـاً قـد شـابه زهـرُ الرُبـا فكأنمـا هـو مُقمـرُ

ب١٣ دُنيـا معـاشُ للـورى حتـى إذا حُلـي الربيـعُ فإنمـا هـي منظـر

ب١٤ أضحت تصوغُ بطونها لظهورها نوراً تكادُ له القلوب تُنورُ

ب١٥ من كل زاهرةٍ ترقرق بالندى فكأنها عينٌ عليه تحدّرُ

ب١٦ تبدو ويحجبها الجميمُ كأنها عذراء تبدو تارة وتخفّرُ

ب١٧ حتى غدتْ وهداتها ونجادها فئتين في خلع الربيع تتبخترُ

ب١٨ مُصفرةً مُحمرةً فكأنها عُصبٌ تيممنُ في الوغا وتمضرُ

ب١٩ مِنْ فاقعٍ غضن النباتِ كأنه دُر يُشقق قبل ثمّ يُزعفرُ

ب٢٠ أو ساطعٍ في حُمرةٍ فكأنّ ما يدنو إليه من الهواء مُعصفرُ

ب٢١ صُنع الذي لولا بدائع لُطفهِ ما عاد أصفر بعد إذْ هُو أخضرُ

ب٢٢ خُلق أطلَ من الربيع كأنه خلقُ الإمام وهديهُ المُيسرُ

ب٢٣ في الأرضِ منْ عدل الإمام وجودهِ ومن النبات الغضَ سُرجٌ تزهرُ

ب٢٤ تُسقى الرياضُ وما يُروض فعله أبداً على مرّ الليالي يُذكرُ

ب٢٥ إن الخليفة حين يُظلمُ حادثٌ عين الهدى وله الخلافةُ محجرُ

ب٢٦ كثرت به حركاتها ولقد تُرى من فترة وكأنها تتفكرُ

ب٢٧ مـــا زلـــتُ أعلـــمُ أنّ عُقـــدة أمرهـــا فـــــي كفـــــه مُـــــذ خُليـــــتْ تتخيـــــرُ

ب٢٨ ســـكن الزمـــانُ فـــلا يـــدٌ مذمومـــةٌ للحادثـــــــات ولا ســـــــوامٌ يُـــــذعرُ

ب٢٩ نظـــمَ الـــبلاد فأصـــبحت وكأنهـــا عقـــدٌ كـــأنّ العـــدلَ فيـــه جـــوهرُ

ب٣٠ لم يبْق مبـــدىً مُـــوحشٌ إلا ارتـــوى مـــن ذكـــره فكأنَمـــا هـــو مَحضـــرُ

ب٣١ ملـــكٌ يَضـــلُ الفخـــرُ فـــي أيّامـــهِ ويقـــلُّ فـــي نفحاتـــهِ مـــا يكثُـــرُ

ب٣٢ فليعْسُـــرنّ علـــى الليـــالي بعـــدهُ أنْ يُبتلـــى بصُـــروفهنّ المُعســـرُ[١]

القـــــراءة النقديـــــة :

القصيدة تعطي فكرة واضحة عن القدرة الشاعرية لأبي تمام ، وتمكّنه من ناحية اللغة ، وعن خياله الخصب العميق الظلال ، وعن مشاعره المتدفقة التي تنفعل بما تراه من مظاهر الحسن ، وروعة الجمال التي أودعها الله في الطبيعة من خلال وصفه للربيع ومباركة خيراته والآئه والإشادة بحسنه وبهائه . ولسنا معنيين في هذا البحث التعريف بحياة الشاعر ، فذلك الأمر يعود الى المطالع ان يتابعه في ترجمة حياة الشاعر[١] .

والذي يهمنا هنا القراءة النقدية الجديدة لها ومصافحة جوّها وسبر أغوارها للوصول الى معالمها وأفكارهـــا التي تؤدي بنا الى القيم الموضوعية التي يتشكل منها بناؤها ، وتتعاقد فيها هيكليتها وتتواصل معهـــا قيمهـــا الفنية ، فضلاً عن المنهجية التي كتب بها ابو تمام قصيدته هذه والاسلوب الذي عالج فيه مفردات وتراكيـــب أبياتها .

ومن خلال القراءة المستندة الى الوعي والتشخيص للقصيدة . وجدنا ما يأتي :

أ – إنَّ نسق النص قد أمتد أفقياً بحيث جسد افكار النص في اثنتين وثلاثين بيتاً بنص الديوان الـــذي حققـــه " خلف رشيد نعمان " .

ب– يتميز النسق بموسيقى خارجية تمثل وزناً واحداً يعطي روحية الشعر وأنغامه المتلاحقة الموحدة من بحر الكامل المتميز بأنه اكثر البحور حروفاً ، والذي يوفر قدراً كافياً من المعاني وفيه حرية أكبر للشاعر ، فضلاً

عن أنها تلمح من بعيد الى ان الممدوح على قدر من الرفعة والعلو وتوافر الخصال الكثيرة دفعه لاختيار قالب واسع يفي بالغرض .

مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ

جـ – إنَّ القافية (الراء) التي تؤدي دوراً كبيراً في موسيقى النص ، لأنها المنبع والمصب للبيت . وليست قيداً . فهي تعطي إيحاءات نغمية وموارد وحي للشاعر ليصب بها مجاره الطبيعي، وهي قوية بما تؤديه من معناها ومجراها .

د– وجود الصور الشعرية المعتمدة على البناء الشعري ، ومالها من جماليات تخدم النص .

هـ – القيم الفنية التي تجعل النص مشرقاً بمبناه ومعناه .

و– بروز عواطف النص.

ز– بؤر النص وظلال الألفاظ والكلمات .

ح – التسلسل الفكري للنص ، ولنحاول الآن الدخول في عالم النص لاستكشاف كنهه وأجواءه ونباشر في تلمس محاوره وقيمه بعد ان تلمسنا من خلال القراءة الاولى بعض الشواخص القريبة منّا . وحان لنا حينئذ الدخول للنص من خلال الموصلات الداخلية عبر الخطوط الإيحائية التي تتناغم معها من خلال التحليل المنهجي المتكامل وما دامت القصيدة نوعاً أدبياً . والأدب مجموعة من القيم . فلا بُدّ لنا من معرفة هذه القيم .

١– القيم الفكرية :

أ – القيم الجمالية : فالنص يمثل مشهداً رائعاً جديراً بالتأمل من المشاهدات لأجواء الربيع وآثاره الآسرة والدعوة الى مشاهدة الرياض وما صنع بها الربيع فتلك المظاهر من صنع الله ، وقد استثمره الشاعر أفضل استثمار مزاوجاً بين الافكار والعواطف وموصلاً بينهما بحيث كانت القصيدة متسلسلة في موضوعاتها وانتقالاتها تسلسلاً منطقياً كأنما كان الشاعر يخطط لقصيدته تماماً كما يفعل المهندس قبل الشروع بالبناء ، لا فضل فيها ولا تعارض .

ومصداقاً لذلك يمكن اختزال تلك الافكار بما يأتي :

– استهلال النص بالنسيب الذي يمّهد تمهيداً صالحاً لغرض الشاعر . والنسيب الذي اعتمده الشاعر هنا في مستهل مديحه إنما هو فن يُهيء الجوّ تهيئة صالحة للغرض الذي يقصد اليه .

– وصف مظاهر الطبيعة في فصل الربيع (من ب٢ – ب٢١) .

ب– القيم الأخلاقية : والصورة التي يرسمها الشاعر يبدو فيها الممدوح الأنموذج الذي تلتقي وتتوضح في شخصه . فالشاعر –هنا– يعني بتقديم صورة مرضية للممدوح يتقبلها المتلقي قبولاً حسناً ، ومن ثم يجني الممدوح حسن السمعة وتأييد الناس لمواقفه واعماله ، بمعنى آخر ، أن غاية الاستكمال الخلقي في هذا المسلك الفضيلة المحمودة عند الناس ويمكننا استخلاص هذه القيم من النص بما يأتي :

– خُلق الممدوح : بمعنى سجيته ومروءته وطبعه ودينه ، من (ب٢٢ – ب٣٢)

– العدل الذي يرمز الى وضع الشيء بموضعه ، والجود الذي يعني اعطاء الاكثر وإمساك الأقل (ب٣٢) .

– رسم ابو تمام للمدوح توافق شعوره ومشاعره الفياضة إذ مجد فيه الصفات التي حرص العرب على تمجديها من (ب٢٤ –ب٣٢) .

أما القيمة العاطفية : فالنص تغذيه الحواس التي لها الأثر البالغ في الحياة النفسية ، فالمتلقي عند مواجهته للنص المرسل من المبدع . فلا بد له من الإحساس بالمشاعر والعواطف التي تصاحب الافكار وترفرف بين مفردات محتوى النص ووراء كلماته هذا الإحساس الذي له علاقة وثيقة بالحالة النفسية لكلا طرفي المنفعة التي تتركها القصيدة من عوامل التهيج النفسي المرتبطة بعالم الجمال .

والأخلية الوجدانية هي التي تعكس جوانب الإحساس بالجمال، وهي المحرك الحقيقي لتذوق النص والشعور بحركته وعاطفته والنص تتراوح مقاييسها قوةً وضعفاً واستمراراً وانقطاعاً ، والتأدية مرتبطة بالشاعر . فهي في هذا النص قوية سامية مستمرة ؛ لأن الباعث جدير بالسموّ والإخلاص والصدق . فجاءت مطبوعة غير مكلفة .

إن عاطفة (السرور والبهجة) تستغرق ٢١ بيتاً وتستوعب دفقات خلقها لتختزن في بؤرها . فالقصيدة تواجهك بالفرح والسرور :

نزلتْ مقدّمة المصيف حميدةً ويدُ الشتاءِ جديدة لا تُكفرُ[١]

ويتوالى السرور وتتوالى البهجة :

أو لا ترى الاشياء إن هي غُيرت سمجتْ وحُسنُ الأرض حين تُغيرُ[١]

واذا ما تحولنا الى عاطفة (الرغبة والإحساس بالجمال) تُطالعنا عاطفة حب الجمال المتمثلة في الإحساس بجمال هذه المناظر الممتعة في إستظهار القيم الجمالية في وصف مظاهر الطبيعة خلال الربيع ، كما في قوله :

تريا نهاراً مشمساً قد شابه زُهر فكأنما هو مُقمرُ

يا صاحبيّ تقضيا نظربكما تريا وجوه الأرض كيف تصوّرُ[١]

فهو يخاطب صاحبيه ليشاركاه في الأحساس بجمال هذه المناظر الممتعة ، حيث يقول : أيها الصاحبان أمعنا النظر لتبصرا الجمال في وجوه الرياض كيف يصور ، وستشاهدان النهار المشمس قد امتزج به زهر الرُبى ، وكان الجوّ مقمرٌ وليس مشمساً ، وستريان قطرات الندى المتموجة في كأسات الزهور ، وكأن كل واحدة منها عين يموج فيها دمع الفرح والابتهاج .

ونحسُّ أنَّ أبا تمام يدعونا الى ان نشاركه هذه المتعة ، ونُحس معه بالنشوة .

وفي أبيات النص عواطف أخرى كالعاطفة الدينية :

صُنع الذي لولا بدائعُ لُطفه لعاد ما عادَ أصفر بعد إذ هو أخضرُ[١]

فالعاطفة الدينية في البيت إيحائية وغير مباشرة ؛ لأن المشهد الرائع جدير بالتأمل ، فهو صنع الله الذي لولا قدرته النافذة في هذه الحياة بقيت هذه المناظر الجذابة ، فهو الذي أبدعها ، وهو الذي يذهب بها ، ثم يعيدها

متى شاء مستفيداً من الآية القرآنية الحكمة : (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [١] .

وفي مقابل ذلك نجد عاطفة (الاعجاب) المتمثلة بالممدوح ، وهي ماثلة في النص من (ب٢٢ – ب٣٢) .

والصورة التي يرسمها ابو تمام يبدو فيها الممدوح الأنموذج الذي تلتقي وتتوضح في شخصه القيم الأخلاقية بوصفها اكثر من أثر في من حوله بحيث يرونه في أسمى درجات الكمال التي تثير فيها عاطفة الإعجاب فالشاعر يعتني بتقديم صورة مرضية للممدوح ، يتقبلها المتلقي قبولا حسناً ، ومن ثم يجني الممدوح حسن السمعة وتأييد الناس لموافقة واعمال . ومن هنا ندرك ان اعجابنا للقيم الاخلاقية لن يكون الهدف من ذلك المدح الشخصي للممدوح ، وانما الاعجاب للقيم نفسها ، وما الممدوح الا رمزاً لها .

ان المتلقي وهو يستقبل هذه العواطف المختلفة التي يثيرها النص ليجد نفسه أسيرها سواء أرضي عنها ، أم روضها لكون تلك العواطف صادقة نبيلة ومتى كانت العاطفة دافقة نبيلة ادرك النص غايته باقتدار .

دلالة اللـــون في القصيدة :

اللون يعد وسيلة من وسائل التعبير ، التي لا تقل أثراً عن الموسيقى والغناء في النفس وربما فاقها في بعض الاحيان، [١] وهذا ما شجع بعض النقاد الى اضافة اللون الى عناصر بناء النص الشعري الاساسية ، وهي الموسيقى والعاطفة والخيال : (ومن شأن تلك العلاقة المتلابسة بين موسيقى اللغة وموسيقى اللون ان جاز التعبير ان نتج ايقاعا داخليا اكثر ألتصاقاً بحركة الذات يمثل جوهر الموسيقى الاصيل وجذورها الجامع الذي لا شكل له سوى شكل الذات الغامضة وحركتها الحية) [١] ، وبهذا يثير ذكر اللون: (حاسة البصر الخاصة والمكلفة بتوصيل ذبذبات اللون الايقاعية الى المخ وذلك من استشارة المراكز العصبية وتحريكها بواسطة التخيل لا التشكيل المباشر) [١] ، يبدو ان علاقة اللون وثيقة بالحالة الشعورية التي يمر بها الشاعر ، ولا شك أن هذه الدلالة تختلف باختلاف الظروف النفسية التي يمر بها . ويجب ان ننبه هنا أن المقصود بدلالة اللون هي الدلالة القنبة لكونها لافتة وواضحة في القصيدة ، فضلاً عن أن ثمة أواصر تجمع بين اللون من جهة وعلم الدلالة من جهة أخرى فـ ((إنّ لألفاظ اللون اهمية في علم الدلالة ، لأنها أحد المجالات القليلة التي يمكن فيها مقارنة نظام لغوي بنظام يمكن تحديده وتحليله بأسلوب موضوعي)) [١] ، وعند النظر في القصيدة نجد أن الألوان الأساسية التي وظفت فيها هي : الأصفر ، والأحمر ، والأخضر والأبيض) ؛ ((لأنها ألوان مشرقة تنزه النفس لأشراقها ونورانيتها)) [١] ، أما الألوان الثانوية الموظفة في القصيدة ، فتشير الى درجة من درجات اللون. كلفظة (فاقُع) : الخالص الصفرة الناصع[١] ، او(ساطع) : (يقال للصبح اذا طلع ضوْؤه في السماء) [١] ، أو لا يذكر فيها اللون على نحو صريح بيد أنه يمكن أن يفهم من السياق العام للبيت او الدلالة مثل ((يُشقق)) ، يتخذ لوناً يشبه لون الشقيق ، وهو نوع من الزهر الأحمر[١] ، ((يزعفر)) : يتخذ لون الزعفران الأصفر ، (المعصفر) المصبوغ بالأصفر، (زهرُ الربّا) : بياض الزّهر، (الأزهرُ) : البياض ، ولعل اللون الأصفر هو أسخى الألوان في نظر الشاعر ، وهو لذلك يكثر منه ، متفنناً في ابرازه بطرق

وأوضاع مختلفة نحو قوله :

صُنع الذي لو لا بدائع لطفه ما عاد أصفرَ بعد إذ هو أخضرُ[١]

فالشاعر في البيت يذكر(الأصفر) صراحة فهو يعد عنصراً جمالياً عندما يرد بصيغة اصفر، فضلاً عن انه مفصل رئيس من مفاصل البيت ؛ ولانه كان مطلباً في تحول الأخضر الى اصفر، والاصفر الى اخضر بدا ذلك في قوله : (ما عاد اصفر بعد إذ هو اخضرُ) ، وقد استعمل الشاعر المنطق في معرفة هذه الحقيقة فلو لم يكن ذلك ناتجاً عن ارادة الله وفعله لبقيت على حال واحدة ، ولما تحول الأخضر الى أصفر ، والأصفر الى أخضر ، فالتحول دليل على القدرة الإلهية . ثم يعود إليه ببراعة عالية لسببين مدى الامتزاج والتناسب بين لوني الفئتين : الأصفر والأحمر.

فالطبيعة تبدو(مَصفرة مُحمرة) ، وقد كساها الربيع لونين من الثياب ، فكل مجموعة تلبس لوناً ، وكأن وجه الأرض عصبتان مقاتلتان : إحدهما تنسب الى اليمن تحمل الريات الصفراء ، والثانية تنسب الى قبيلة مضر تحمل الرايات ذات اللون الأحمر ، وهاتان المجموعتان من الزهور : الصفراء والحمراء تشعر أن بينهما امتزاجاً وكاملاً عجيباً ، وهذا الامتزاج المتسم بالحركة يُعزز بصورة جمالية بصرية بوساطة الحركة التبادلية المتناسبة بين الألوان الذي يُعد عنصراً من عناصر التشكيل . وفضاءً من فضاءات الصورة . او لا يذكر فيها اللون على نحو صريح ، بيد أنه يمكن أن يُفهم من السياق العام للبيت نحو قوله :

منْ فاقع غضّ النبات كأنهُ دُر يشقــقُ قبل ثُم يُزعْفــــرُ[١]

فإن دلالة اللون حاضرة في البيت في قوله (فاقع) ليدل على صفاء الأصفر ، فالفقع في اللغة (مصدر فقع اللون فقعاً وفقوعاً ، اذا خلصت صفرتهُ)[١] .

كذلك فإن دلالة اللون حاضر في قوله : (يُزعْفرُ) : ليتخذ لون الزعفران (الأصفر) وقوله: في (ب٢٠) (يدنو اليه من الهواء (مُعصفرُ) : ليدل على المصبوغ بالأصفر . وإن لم يذكر على نحو صريح بلفظ من ألفاظ اللون الأساسية . وهو يتفق: ((مع قواعد البنية الخطابية المعطاة ذات القواعد البلاغية))[١] .

ويظهر الأداء بالأحمر في قوله : ((ب١٨ : مُحمْرةً فكأنها عُصبٌ)) ، يُراد من وراء اللون دلالة التشبيه اذ شبه الفئة بعصبة مقاتلة وفق لون الراية التي تحملها العُصبة ، وكذلك الأمر في قوله : (أو ساطعٍ في حمرةٍ فكأنما)

فالفئة الثانية الحمراء– ساطعة الحمرة يدنـــــــو اليه من الهواء مُعصْفرُ[١]

ليشوبها شيء من الصفرة قد تظلل بلون أصفر ، وذلك لما بين اللونين – في المجموعتين – من تداخل وتشابك في العرض .

ومن الألوان التي أُدي بها في القصيدة اللون الابيض . وإن كان لم يذكر فيها على نحو صريح ، بيد أنه يمكن ان يفهم من سياق البيت . نحو قوله : ((ب٨ : حقاً لهينك للربيع الأزهر))[١] . فالدلالة اللونية حاضرة في قوله (الأزهر) ليدل على البياض ، فالأزهر في اللغة (المشرق في الحيوان والنبات ، الابيض فيه حمرة – الحسن)[١] . وصورة البياض المشرقة تلك نجد لها أثراً جمالياً عندما يصرح الشاعر بكلمة (الربيع) بعد أن سماه كناية؛ لأنه قبل هذا التأريخ لم يأت ربيع مثله في كثرة أمطاره ، وخيراته ، فالممدوح هو – الربيع–

ازدهرت الحياة في عهده ، وقوله :

منْ كُل زاهــرةٍ ترقرقُ بالندى فكأنمــا عيْن عليه تحــدّرُ[١]

فنلحظ أن الدلالة اللونية حاضرة في قوله (زاهرةٍ) ليدل بها على البياض فالزهرة في اللغة :((نورٌ كل نبات ، والجمع زهرُ، وخص بعضهم به الأبيض ، والزهرةُ : البياض)) [١]

فالصورة متحركة عن طريق (ترقرق) اذ صور بها الشاعر تموج قطرة الندى في الزهــرة ؛ حيــث شــبه الزهرة بالعين التي يترقرق فيها الدمع على سبيل الاستعارة المكنية ، ثم عاد في الشطر الثاني ليشبه القطرة بالدمعة المتحدرة من العين ، ليرسم بذلك حركة قطرات الندى ، وهي حركة دقيقة تدل على دقــة ملاحظــة الشاعر ودقة تصويره .

وهذا الفعل المتسم بالحركة . يُعزز بصورة جمالية بصرية بوساطة اللون الابيض الذي يُعد اداة فاعلة مــن أدوات التشكيل .

ومن الالوان التي وظفت في القصيدة . اللون الأخضر . وكان الاداء فيه في موضع واحد . إذ جاء بلفظــه الأساس في (ب٢١ : ما عاد أصفر بعد اذ هو أخضر) [١] ، فاللون جــاء بصــيغة (أخضــر) . نلحــظ أن الصورة متحركة عن طريق الفعل (عاد) .

بيد أن الأداء بالأخضر ، يمسي متغيراً عندما يأتي بصيغة فعلية ، فالشاعر بيّن دلائل قدرة الخالق ســبحانه وتعالى في تحويل الاخضر الى اصفر ، والأصفر الى أخضر .

وعلى وفق ما تقدم . يمكن القول بأن اللون الأصفر كان له الصدارة سواء كان تصريحاً او ايحاءً ، وتغليب الشاعر لهذا اللون على الالوان الاخرى يُعطي انطباعاً عن عالمه وعن الواقع الذي يعيش فيه ســواء كــان واقعاً مادياً ام معنوياً ، فطغيان هذا اللون يرجع الى عمق دلالته في نفســية الشــاعر إذ إن : ((الصــورة الشعرية الملونة تعبر عن طبيعة الشاعر ومزاجه وسلوكه وتأثير الواقع عليه ، فمن خــلال دلالــة الألــوان نستطيع أن نتعرف على الحالة الشعورية التي تكمن داخل النفس البشرية)) [١] ، فضلاً عن أن اللون الاصفر يُعبر عن الفرح والسرور . وإهتمامات عقلية وفكرية ، وميول صريحة غير منخفضة متسمة بوهم العظمة او دالة عليه[١] .

الصورة الفنيــــــــة :

كان يحاول الأبتكار فيها والاتيان بالطرائق التي لا تقع إلا لذهن عالم حتى غدت القصيدة مشهداً رائعاً جديراً بالتأمل لتؤدي منظراً تشكيلياً عاماً جميلاً في شكلها ولونها وظلالها سواء ركز على وضع الربيع من خــلال مشاهداته لأجوائه ام مشاهداته مع صاحبيه للرياض ، فإنه يمثلها تمثيلاً حياً كأننا نراها امام اعيننا ويعبر عن محاسنها الظاهرة ورموزها الحقيقية .

لقد أبدع الشاعر صور مختلفة لوصف الربيع تدل على دقة ملاحظته ودقة تصويره ، فأكرم بهــذا الابــداع واكرم بهذا الفنان القدير ، والآن نشير الى بعض هذه الصور الجميلة :

(١) النسق المتشكل من الاستعارة :

ففي البيت الاول : ((رقت حواشي الدهر)) ، أسند الشاعر الرقة الى حواشي الدهر حيث شبه الدهر بثوب له حواش مطرزة ناعمة ، فحذف المشبه به وهو الثوب ، وأبقى شيئاً من لوازمه وهي : الحواشي ، الرقيقة ، ثم وصفها بقوله : (فهي تمرمر) ، وهي صورة أخرى لحواشي الدهر حيث شبهها بفتاة تتمايل دلالاً وبهجة ، ثم حذف المشبه به (الفتاة) وأبقى صفة من صفاتها وهي التمايل ، وهاتان الصورتان من باب الاستعارة المكنية .

أما قوله : ((وغدا الثرى في حُلية يتكسر)) ففيه استعارة مكنية حيث شبه الثرى (وجه الأرض) وقد أخضرت أشجاره وتحركت أغصانه وتنوعت أزهاره بفتاة لبست حُليها ومضت تتثنى في مشيتها دلالاً ، ثم حذف المشبه به ، وأبقى لبس الحُلي ، والتثني في المشي اللذين هما من لوازم الفتاة . ولا يخفى ما في هذه الصورة من روعة ، جعلت المشهد متحركاً مبتهجاً ، وجعلتنا نتفاعل معه في هذا الإبتهاج ، ومن هنا يتجلى ابداع الاستعارة التي تتضمن انزياحاً عن اللغة المعيارية لما يحمله التركيب من شحنة تحفيزية .

(٢) النسق المتشكل من التشبيه :

ب١٥ / فكأنها عينُ عليه تَحدرُ

ب١٦/ كأنها عذراءُ تبدو تارةً وتخفر

ب١٨ / فكأنها عُصبٌ يتمنُ في الوغى وتمظُر

ب١٩/ كأنهُدُ دُرّ يُشفق قبلُ ثم يُزعفرُ

ب٢٢/ كأنهُ خُلُق الأمام وهديهُ المُيسّرُ

ب٢٩/ وكأنها عقْد كان العَدل فيه جوْهرُ

ب٣٠ / فكأنما هُو مُحضرُ

ب٢٦/ كأنها تتفكَرُ

ب١٢/ فكأنّما هُو مُقمر

اول ما يلفت النظر في هذه الانساق لجوء الشاعر الى اداة التشبيه (كأنّ) دون غيرها من أدوات التشبيه الأخرى .

ويبدو أن اختيار اداة التشبيه المناسبة متأت من تيقن القائم بالتشبيه او عدم تيقنه من قوة التشابه بين طرفيه ، فحين يستعمل اداة التشبيه الدالة على التيقن ، فإنه يقرر قرب المشابهة لما لفعل اليقين من دلالة على تيقن الاتحاد وتحققه ، ولذلك استعمل الشاعر (كأن) ، لأن اجتمعت فيها (الكاف) الدالة على التشبيه و(أنَ) الدالة على التوكيد ، فهي بذلك اقوى في الدلالة على قوة التشبيه[١] . كما نلحظ أنّ الغرض من التشبيه في غالب الأبيات هو الأحساس بالجمال المتحرك الذي يتقدم به الربيع حتى كأن حركته تبدو للأبصار على خلاف جمال الأشياء المصنوعة الثابتة ، وكأن الجو مقمر وليس مشمساً ، وإن النهار المشمس قد امتزج به زهر

الربى بقطرات الندى المتموجة في كاسات الزهور، وكأن كل واحدة منها عين يموج فيها دمع الفرح والابتهاج والزهرة وهي تظهر وتختفي خلف النباتات والحشائش التي تغطي وجه الأرض. ويبدو لي أن جمع عناصر التشبيه في الأبيات مستمدة من الطبيعة وعناصرها الساكنة والمتحركة (عين ، عذراء ، عُصَب ، دُرّ، خُلُق ، عقد ، العدل ، مُقمر، وهذا يؤكد بأن المشبه به هو الأقرب الى ذهن المتلقي إذ إن عناصره مستمدة مما يحيط به من عناصر الطبيعة وما ألفوه من ظواهرها . وهنا يحقق التشبيه المتعة الحسية والجمالية .

وقوله ب١٢ (فكأنما هو مُقمرُ) [١]حيث شبه شعاع الشمس الباهت المرسل الى الروابي الخضراء التي يعلو أشجارها الزهور بضوء القمر مع سواد الليل ونجومه ، وهي صورة رائعة وضحت المشهد – الربيعي – البهيج تحت أشعة الشمس بشكل بديع في قوله : ب١٦ ((كأنها .. عذراءُ تبدو تارةً وتخفرُ)) [١] .

نلحظ تشبه الزهرة التي تظهر وتختفي مع حركة الرياح بفتاة عذراء تبدو بوجهها ، ثم تختفي خجلاً ممن يراها ، وهي صورة أعطت المعنى حركة وحيوية .

أسلوب القصيدة :

يُعد الاسلوب الادبي من أهم العناصر التي تُسهم في ايصال الافكار ، وهو كذلك الثوب الذي يظهر الإبداع الأدبي في انتقاء الألفاظ والتراكيب الصحيحة ، ورصفها في القالب الذهني الذي تنصب وتؤطر فيه التراكيب اللغوية بشكل يقيد مما يقصد بالكلام ويتطابق مع فن القول ، متلائماً معه ، ويه تستبين جماليته ، فضلاً عن قيمة الافكار التي يقدمها ، وقد وجدنا في تحلينا لأسلوب قصيدة (وصف الربيع) الآتي :

(١) النسق المتشكل من الجملة الإسمية البادئة بـ (كأنّ) :

ب١٥ كأنها عينُ

ب١٦ كأنها عذراءُ

ب١٨ كأنها عُصبُ

ب١٩ كأنه دُرٌّ

ب٢٢ كأنهُ خلقُ

ب٢٩ كأنها عقدُ

ب٣٠ كأنها هو محضرُ

ب٢٦ كأنها ...

ب١٢ كأن هو مقمرُ

(٢) النسق المتشكل من الجملة الإسمية :

ب١ : هي تمرمُر

ب٦ غيثان ..

ب٧ ندى ...

ب٨ للربيع الأزهرُ

ب١٤ لهُ القلوبُ

ب١٣ هي منظرُ

ب١٨ مُصفرة محمرةً

ب٢١ هو أخضرُ

ب٥ مَطرُ يذوب

ب١٣ دُنيا معاشُ

يكشف لنا التركيب عن وعي الاختيار للجمل وحسن التوزيع . فكأن المعنى الذي جاء بـــه التركيـــب الأول لسعته يتطلب توظيف قوة التنغيم الصوتي للمشاركة في توسيع المدى الدلالي المتوافق مع الصيغة الاســـمية الدالة على الثبات ، فانظر هذا التناسق الجميل في التعبير والمعنى بين النسقين .

(٣) النسق المتشكل من الجمل الفعلية :

ب١ رَقَتْ حواشي الدهر ...

ب١ : غدا الثرى

ب٢ : نزلت مُقدمةُ

ب٣ : غرس الشتاءُ

ب٤ : آسى البلاد

ب٧ : خلت السحّاب

ب٩ : كانت الايام

ب١٠ : ترى الاشياء ... غُيرت .. سمُجت

ب١١ : تقصيا ... تريا

ب١٢ : تريا نهاراً

ب١٤ : أضحتْ تصوغُ

ب١٥ : ترقرقُ .. بالندى

ب١٦ : تبدوُ

ب١٧ : غدَتْ

ب٢١ : صُنعُ الذي ... عاد

ب٢٦ : كثرتْ به

ب٢٧ : ما زلتُ أعْلمُ

ب٢٨ : سَكنَ الزمانُ

ب٢٩ : نظمَ البلاد ... فأصبحتْ

نلحظ الشاعر قد أتى بالافعال في الجمل بصيغة المضارعية ، (يذوب – يتكسر – يُذر – تُنسى – تُكفر – تُثمر – ترقرق – تتفكر – يُذعر – تتبختر – تحفر – تكاد – يدنو) ، التي تجتمع في دلالها على الاستمرارية والتجدد . فتدعم الإلحاح الموحي بوصف الربيع ومباركة خيراته وآلائه والإشادة بحسنه وبهائه . ووظف افعال ماضوية هي : (رَقت – نزلتْ – كانت – غدتْ – سكنَ – اصبحت) ومعلوم أن الفعل يفيد دلالة تجدد الحدث[١] .

وقد أفاد اختيار الأفعال هذه الدلالة من لدن الشاعر لتؤدي دورها في النص من اثارة البهجة ، برقة ألفاظها ، ورشاقة معانيها ، ونقل المشهد بمشاعر متفاعلة فياضة مُتجددة .

(٤) تكررت الحروف والألفاظ ، من ذلك تكراره لصوت – التاء – في قوله :

أضحت تصوغ بطولتها لظهورها نـــــــوراً تكـــــــادُ لهُ القلوب تُنوّرُ[١]

أربع مرات تكراراً قائماً على التساوي في عدد التكرارات لكل شطر، ومثل ذلك تكراره لصوت – الدال – بطريقة توزيع منتظمة مرة لكل شطر نحو قوله :

منْ كُلّ زاهرةٍ ترقرق بالندى فكـــــــأنها عين عليه تحدرُ[١]

او مرتين لكل شطر من نحو قوله :

إنّ الخليفة حينَ يُظلمُ حادثُ عين الهُدى وله الخلافة مُحجرُ[١]

وربما كرر ابو تمام حرف الروي في حشو الأبيات هادفاً من وراء ذلك الى تقوية ايقاع حرف الروي وتعزيزه بما مر من حروف مماثلة له في الحشو ، ومن ذلك قوله في :

(ب١ ، ب٦ ، ب٨ ، ب٩ ، ب١٠ ، ب١١ ، ب١٢ ، ب١٣ ، ب١٥ ، ب١٦ ، ب١٧ ، ب١٨ ، ب١٩ ، ب٢٠ ، ب٢١ ، ب٢٢ ، ب٢٣ ، ب٢٤ ، ب٢٦ ، ب٢٧ ، ب٣٠ ، ب٣١ ، ب٣٢)

وكرر لفظة (الغيث) في (ب٦) ثلاث مرات ، وكذلك كرر لفظة (الربيع) خمس مرات في (ب٨ ، ب١٣ ، ب١٧ ، ب٢٢) ، فضلاً عن تكرار لفظة المطر والصحو في (ب٥ ، ب٦) .

فأبو تمام حينما عمد الى التكرار إنما أراد ان يؤكد حقيقة ما ويجعلها بارزة اكثر من سواها ، وهذا مما زاد من جمال الايقاع ، وتجدد الدلالة ، من دونما خللٍ في الموسيقى ، ولا في الإيحاء المعنوي ، ولا في التأثير العاطفي ، ومن دونما ملل لدى المتلقي .

(٥) استعمل الشاعر الطباق على وفق اسلوب التضاد ، فهو مثلاً يطابق بين (غيث ظاهر – وغيثٌ مُضمر) ، في قوله :

غيثـــــــــــانُ فالأنـــــــــواء غيثٌ ظاهـــــــــــرُ لك وجههُ، والصحو غيث مُضمرُ[١]

وهذا التطابق الحاصل بين اللفظتين حقق تقارباً صوتياً بينهما من جهة ، وخلق تباعد دلالياً من جهة اخرى ،

فالغيث هو المطر ، وغيث مُضمر وهو الصحو. ومثل ذلك قوله :

حتى غدت وهداتُها ونجادُها فئتين في خِلعِ الربيع تتبخترُ[١]

نلحظ التقابل بين (الوهاد ، والنجّاد) التي تبدو جميعاً كفئتين تميسان في حلل الربيع ، ولا يخفى على المتلقي الواعي تضاد اللفظين الدلالي الذي يدفع المتلقي الى الانتباه على التجميل ، وفيه ايضاً وجه من أوجه كمال البديع .

وجاء البيت الثالث حاملاً لصورة تضادية اخرى تلك المتحققة في قوله :

لولا الذي غَرّس الشْتاء بكفه لاقي الغرس هشائماً لا تثمرُ[١]

نلحظ ان التطابق الذي جاء به البيت المقدم بين (الغرس و الهشائم) بهندسته التضادية المعتمدة ، يبين أن الشتاء بما احتوى من أمطار هو الذي هيأ ثمرات الصيف ، فالشتاء محمود برغم عوادي برده وويله، وهذا يُعطي دلالة الحصر الزمني المطلق للشتاء .

(٦) استعمل الشاعر الاسلوب الانشائي في قوله :

يـــــــا صاحبي تقصيـــــــا نظريكما تريا وجوه الروض كيف تُصَوّرُ[١]

وهو نداء قصد به الحث على اغتنام الفرصة بالتمتع والتأمل في المشاهد الجميلة وهذا الشطر(يا صاحبي تقصيا نظريكما) أخذه الشاعر من زهير بن ابي سلمى مما يدل على ثقافته بشعر من سبقه ، ومخاطبة المثنى أسلوب شعري متبع عند كثير من الشعراء القدماء ، ومن جاء بعدهم ، فضلاً لما في النداء من مرونة في الخطاب الشعري .

(٧) ومن الأساليب الانشائية التي كان لها حضور في القصيدة ، الاستفهام ، ليتلاعب بصياغة النص الشعري محققاً في الوقت نفسه عنصري الاثارة والاستجابة ، من نحو قوله :

أربعيناً في تسع عشرة حجّةً حقـــــــاً لهنـــك للربيع الأزهرُ[١]

وعاود هذا الاسلوب في البيت الرابع :

كـــــــم ليلةٍ آسى البلاد بنفسه فيها ويـــــومٍ وبْلـــــهُ مُتعنجرُ[١]

(٨) استعمل الشاعر اسلوب التوكيد في القصيدة لإيضاح مضاقيه الدلالية ، فضلاً عن زيادة حدة الخطاب التواصلي ، فأستعمل التوكيد بـــ (إنّ) مع اسمها وخبرها التي تفيد توكيد مضمون الجملة وتحقيقه[١] ، وذلك في قوله :

إنّ الخليفة حين يُظلمُ حادثُ عين الهدى وله الخلافة مُحجرُ[١]

ومنها (أنّ) مع سامها وخبرها التي تفيد ايضاً توكيد مضمون الجملة وتحقيقه نحو قوله :

ما كانت الأيام تُسلبُ بهجةً لو أنّ حَسنَ الروض كان يُعمرُ[١]

وقوله :

ما زلتُ أعلمُ أنّ عُقدة أمرها فـــــــــــي كفه مُذْ خليتْ تتخثـــــرُ[١]

نلحظ أن أبا تمام نوع في الأساليب التي استعملها في ايصال افكاره ، فناسب بذلك التنوع تنوع الافكار، وقد حلق في ذلك التنويع ، ونمّ ذلك عن دراية واسعة باللغة ، وامتلاكه ناصيتها ، وقد أثنى النُقاد القدماء علـــى مثل هذا التنوع واستحسنوه ، ومنهم عبد القاهر الجرجاني[١] .

(الخاتمـــــــــــــة)

١- تجلت العاطفة بمشاعر مختلفة ، منها أن الشاعر مسرور فتمثلت بالسرور والبهجة حتى استغرقت (٢١) بيتاً ، فالقصيدة تواجهك بالفرح والسرور كما في البيت الثاني ويتوالى السرور وتتوالى البهجة في البيت العاشر ، واذا ما تحولنا الى عاطفة الرغبة والاحساس بالجمال تُطالعنا عاطفة حب الجمال المتمثلة في البيت الحادي عشر والثاني عشر ، وفي مقابل ذلك نجد عاطفة (الاعجاب) المتمثلة بالممـــدوح وهـــي ماثلة في النص من (ب٢٢ الى ب٣٢) ، فضلاً عن العاطفة الدينية الإيحائية في البيت الواحد والعشرين ، وهكذا كل بيت مملوء بالمشاعر المناسبة لمعانيها .

٢- الصورة جاءت جميعها حيّة رقيقة متحركة نشيطة ذوات ادراك وشعور ، وكأنها أُختيرت بعناية لتؤدي دورها في النص من اثارة البهجة ، مما يزيد التأثير في نفس المتلقي .

٣- أبدى الشاعر عناية فائقة بالعنصر اللوني الذي بدأ كأنه مع العنصر الحركي الدعامة الكبرى في تشكيل النص ، وأبدى عناية بتشكيل الألوان ، فتراه قد ذكر اللون الأصفر في مقدمتها سواء كان تصـــريحاً ام إيحاءً ويأتي اللون الابيض في المرتبة الثانية ، أما اللون الأحمر فيحل في المرتبة الثالثة ، ويأتي اللون الأخضر في المرتبة الرابعة .

٤- إن القصيدة جاءت وكأنها لوحة من لوحات الرسّام الأسباني بيكاسو رسمها الشاعر للربيع ، وهي تظهر فن ابي تمام في التصوير والتعبير ، إذ مزج الألوان والاضواء والظلال ولاءم بين الحركـــة والشـــكل وربط الطبيعة بالانسان ، وإن هذا لا يقوم به إلا الشاعر المبدع .

المصـــــــــادر

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : المصادر والمراجع :

١- الإبداع في الفن : د. قاسم حسين صالح ، دار دجلة ، الأردن ، ط١ ، ٢٠٠٧م .

٢- الأغاني ، لأبي الفرج الاصفهاني ، ط١ ، مطبعة دار الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٢٧ .

٣- أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ، أنيس المقدسي ، ط٩ ، دار العلم ، بيروت ، ١٩٧١ .
٤- ديوان أبي تمام ، بشرح الصولي ، تحقيق : خلف رشيد نعمان ، ج٢ ، بغداد ، منشورات وزارة القافة والاعلام ، ١٩٧٧ .
٥- الرسم واللون ، محي الدين طالوا ، دار دمشق ، د. ط ، ١٩٦١ .
٦- شرح المفصل : ابن يعيش ، موفق الدين علي بن يعيش (ت٦٤٣هـ) المطبعة المنيرية ، مصر، (د . ت) .
٧- علم الدلالة ، أ ف. آر. بالمر ، ترجمة : محمد عبد الحليم الماشطة ، الجامعة المستنصرية ، بغداد ، ١٩٨٥ .
٨- علم النص : جوليا كرسطيقا : ترجمة : فريد الزاهي ، ط١ ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٩١م .
٩- علوم البلاغة ، احمد مصطفى المراغي – دار القلم – بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٤م .
١٠- الفن والجمال ، د. علي شلق ، ط١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٦ .
١١- قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٧٨م .
١٢- لسان العرب ، ابن منظور الأفريقي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥ .
١٣- اللون ودلالته في الشعر، الشعر الاردني نموذجاً ، ظاهر محمد هزاع ، دار الحامد ، ط١ ، عمان ، ٢٠٠٧ .
١٤- المثلث : ابن السيد البطليوسي عبد الله بن محمد (ت٤٢١هـ) تحقيق : صلاح مهدي الفرطوسي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٢ م.
١٥- المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ) ، قدمه وعلق عليه : د. أحمد الحوفي ، ، ود. بدوي طبانة ، ط٢ ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
١٦- معاني الأبنية في العربية ، د. فاضل صالح السامرائي ، ط١ ، الشركة المتحدة للتوزيع ، بيروت ، ١٩٨١ .
١٧- موسيقى الشعر ، د. ابراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط٦ ، ١٩٨٨م .
١٨- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، القاضي الجرجاني ، تحقيق : محمد ابو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٦٦ .

ثالثاً : المجـــلات :

١- حروف القرآن : دراسة دلالية في علمي الاصوات والنغمات ، د. نعيم الياقي ، مجلة الفيصل ، ع١٠٢ ، السنة التاسعة ، ذو الحجة ، ١٤٠٥هـ - ايلول ١٩٨٥م.
٢- الصورة اللونية في شعر السياب – شاكر هادي التميمي ، مجلة القادسية للعلوم التربوية ، المجلد الثاني ،ع٢ – ٢٠٠٢م .